

قلعة الشقيف معقل فخر الدين

بقلم المحامي ميشال شلي (†)

١ - قبل عهد الامير

قلعة الشقيف في لبنان الجنوبي هي الحصن القديم في التاريخ : المشيد على الطريق الممتدة بين الثبطين ومرجعين في موقع طبيعي فريد بمناعته : يشرف من علو شاهق على وادي الليطاني ويصب البلوغ اليه الا من جهة واحدة ، وبذلك كان يسهل الدفاع عنه .

وزاد في خطورة الحصن موقعه الجغرافي وحر المسيطر على طريق ساحل صيدا ووادي التيم من جهة ، كما انه مع قلعة الصيبة في بانياس يملك مراقبة السبل الى فلسطين الداخلية .

وكلمة « الشقيف » سريانية معناها الصخر الكبير : والقلعة مبنية على جبل صخري مستطيل . وقد عرفت المقاطعة باسم القلعة : بلاد الشقيف .

ويبدو ان الأقدمين : قبل العهد الروماني : حصنوا الموقع . وجاء الصليبيون فزادوا في شأنه بان بنوا القلعة التي لم تزل آثارها بادية للعيان ودعوها باسم « شقيف ارنون » او قلعة « بوفور » وهي اسماء فرنسية^(١) .

ويروي عن تاريخ هذه القلعة ان السلطان صلاح الدين ضربها بالمنجنيق من قرية القليعة القائمة تجاهها .

وذكر الكحبي في « فوات الوفيات » عن سنة ١٢٤٤ « ان القاضي عبدالعزيز النقيه جار في قضائه وحمل الى شقيف ارنون ورُمي به من حلق فتحطم في نزوله .

(١) وهناك قلعة نحا في الكسوف تسمى ايضاً باسم الشقيف ولكن « شقيف تيرون » .

وكأنه تعلق في بعض جوانبها بشيابه فبقي ابنه يستمع نحواً من ثلاثة أيام حتى مات .

وفي غزوة تيمورلنك سنة ١٤٠٠ اعتصم كثير من الناس بتلك القلعة^(٢) .

٢ - في عهد الامير

ما كاد فخر الدين الثاني امير لبنان يتسلم ذروة الحكم في مستقبل العسر حتى اتخذ له سياسة ذات مرام واسعة لتوطيد استقلاله . فكان عليه مناوأة السلطنة العثمانية ونخضد شوكتها . وسنحت الفرصة الاولى بالتحالف مع حاكم ايالة حلب علي باشا جنبلط ، الذي شق عصا الطاعة على الدولة تدفعه دولة « توسكانا » وتوازره دولة العجم .

وبعدما حالف النصر حاكم حلب وامير لبنان في واقعة « عراد » ، قرب حماه ، ودخلا الشام كاسيين ، ناهيين ، نكلت الدولة بالجنبلطي في سنة ١٦٠٧ وعاد فخر الدين الى جباله غير متقاعد عن اعداد العدة لطوارق الحدثان . فانصرف منذ سنة ١٦١٠ ، كما روى ذلك الرحالة الانكليزي « سانديس » الى تحصين بلاده ، ولا سيما قلعتي الشقيف وبانياس ، كي يأمن جائحة الحملات العثمانية من تلك الطريق ، ويظهر تجاه دول اوربا الطامعة في الشرق ، وفي طلبتها اسبانيا وتوسكانا ، بمظهر القابض على منفذ فلسطين .

اما الدولة العثمانية فاجست خيفة . ولم تلبث ان جردت على الامير : حوالي سنة ١٦١٣ ، الجحافل وقد استقدمتها من مختلف الولايات النائية في الاناضول حتى بلغ عدد قادتها اربعة عشر من الباشاوات تحت امره والي الشام احمد باشا حافظ .

ونزلت هذه الجيوش الجرارة على جسر الخردلة تحت قلعة الشقيف . وكان على حافظ باشا ان يختار بين خطتين ، فاما ان يزحف الى جبال الشوف فيدوئنها : واما ان يتولي على قلعة الشقيف المتبعة . فاشار عليه قواده بالاستيلاء على القلعة اولاً ، فضرب عليها الحصار .

(٢) ذكر هذه الحوادث الاستاذ ميني اسكندر الملوغ .

٣ - محاصرة الحافظ باشا

روى لنا الخالدي حوادث ذلك الحصار بعبارة بسيطة ولكن مع الملاحظات والتفاصيل الوافية فقال :

« اما الامير فخر الدين فكان متداركاً اسواله حيث وضع في كل واحدة من قلعة بانياس والشقيف بين اليماص واليارود والعازي ما يبكي الميكرين بها خمس سنين ، ووضع فيها رسم حلقات السكانية مائة الف غرش ... وجعل على عسكر قلعة الشقيف حسين طويل بلوكباشي وبها من البلوكباشية على اربعمائة نفر مائتي وكل من كان منهم متأهلاً ادخل اهله معه الى القلعة .
« ووضع الامير حريمه في القلعتين واوصى الميكرين بامور منها ما نقله عنه الجمهور انه اذا قدر الله عليه ووقع في ايدي النولة وقال لكم كبيرهم سلموا لنا القلاع حتى نطلق لكم اميركم لا نعتصموا قوله واحفظوا قلاعكم وناموسكم ودعهم يفعلون ما يريدون بعد ان تقيروا ناموسكم ولا تسلموا قلاعكم » .

...

وابحر الامير من صيدا قاصداً ايطاليا الجنوبية فظل خمس سنوات بضيافة دولتي توسكانا واسبانيا المسيطرة على نابولي وصقلية .

والباعث على سفره الاستنجاذ بهاتين الدولتين وعقد المعاهدات وياهما على ضمان استقلال لبنان .

ومعظم حامية القلعتين من الجنود المأجورين المعروفين باسم السكمان او السكبان^١ وهم اقوام يضعون انفسهم في خدمة الحاكم من يزيد لهم في المرتب والعازي . واخلص السكمان الخدمة للامير فخر الدين لكونه حزوباً عادلاً ، يجري عليهم المرتب عن سعة وفي الموعد . غير ان جرثومة الخيانة لم تستأصل منهم شأن كل مرتزق .

ونزل الحافظ يجنده في ازنون تحت القلعة يحاصرها . ولكن عسكر الامير اللبناني لم ينتظر مهاجمة عدوه ، بل عمد الى المبادحة . فخرج فريق منه يقاتل الجند العثماني^٢ من اول النهار الى اخره . وفعلوا فعلاً تعجز عنه الجبايرة : كما يقول الخالدي : وعادوا الى القلعة واغلقوا الباب ولم يبالوا بكثرة العسكر .
وفي مقابل القلعة برج خارجي يعرف ببرج الظاهرية ، ولم يكن منيعاً .

١) ذكر الاستاذ اللدق لحظ خاطر في احد ابحاثه ان الصليبيين انشأوا فرقة من الرماة الشرقية وكان اكثرها من الترك ودموها تركويرل وسملها اهل البلاد بالسكبان . ويبدو ان هذه الكلمة هي فارسية معناها السعاة في العيد .

ولذلك دعا الامير فخر الدين قبل سفره الى هدم هذا الحصن . ولكن يبدو ان احد البلوكاشية ظلّ فيه مع خمسين جندياً ولم يدخل القلعة معانداً . قال الخالدي :

« نعاصر حافظ باشا برج الظاهرية في رابع يوم من بكرة النياز الى العصر . وقتل من عسكره نحو ثلاثين رجلاً والرصاص . ثم ان احد السكّانية اراد ان يملأ وزنته باروداً من البرميل وفي يده فتيلة مشعولة . فاحترق البارود وقتل جماعة من السكّانية ونحو سبعين رجلاً من المحاصرين لانهم كانوا وصلوا خطب البرج . وانهدم غالب البرج وملكه العسكر . ونجا بعض السكّانية فاختدروهم الى الخافظ الذي اطلق سبيلهم تعظيماً لتلوب من في القلعة .

« ثم شرع المحاصرون في عمل المتاريس وقطعوا شجر الزيتون ورموه عند برج الظاهرية ، والسرदार حافظ باشا في بعض الاوقات واقف عليهم يأمرهم وينهاهم . واستعمل في السناجق واعيان العسكر حتى اوصلوا شارة الخطب الى الخندق فطلع بالليل طائفة المحاصرين من القلعة واحرقوا متاريس الخطب . فامر حافظ باشا ان يثيروا الخطب ويحعلوا عوضه تراباً في تحالي اللواب فوضع كل واحد نخلة الى ان وصلوا الى خندق القلعة .

« وكانت مدة الحصار ستين يوماً بلياليها ولا يبطل انضرب بالبندق والمدافع من الجانبين لا بالليل ولا بالنهار ولا سيما من القلعة واهاليها . قلله در من في القلعة فقد ثبتوا الحصار ثباتاً ما عليه مزيد لان العسكر الذي مع السردار يزيد عن خمسين الفاً غير اولاد العرب .

؛ - ثبات القلعة

ثبتت القلعة هذا الثبات المدهش بما اظهرت حاميها من بطولة وبما ابدت المدفعية من حذق . فكان يديرها بعض الفرنسيين في خدمة الامير يبلغ عددهم ثمانية عشر جندياً .

وروى المؤرخون ، ومنهم افراد البعثة التوسكانية التي ارتادت البلاد في تلك الآونة ، ان المدفعية كانت ترمي جند الخافظ بالنيران الاصطناعية فتلقى الرعب والذعر .

وعيناً حاول الخافظ استماله قائد القلعة . فأوحى ان الامير عدل نهائياً عن العودة الى بلاده . فاجابه القائد ، كما اعلن الرواة ، انه سيكون صاحب القلعة وما فيها من مال اذا لم يرجع الامير ، فلا تطمع فيها الدولة .

ولم تكن للجنتود العثمانية مدفعية . ولكنهم عثروا في قلعة صيدا على مدفع كبير . فنصبوه امام القلعة « وكان كبيره خارجاً عن القهم . ولكن لحسن الحظ

في حال وصوله ضربوا به مرتين وانفزر « : وعندئذ زال الوبم عن المحاصرين .

...

ولقد عهد فخر الدين بامر البلاد في اثناء رحلته الى اخيه الامير يونس وابنه الامير علي . وكان الامير يونس بقيم في دير التمر ويطلع منها على سير الحصار . وذات يوم استغاث به المحاصرون . فيقول الخالدي :

« أسيراً طلب المحاصرون نجدة من الامير يونس في دير التمر فتطوع احد البلوكباشية مع ١٥٠ نفر وأعطى الامير يونس لكل واحد منهم خمسة غروش هبة ورغم ذلك لم يشب منهم سوى ٥١ نفرأ .
« وكان في الدير جواسيس حافظ باشا فاعلموه بامر هذه النجدة فارسل من ربه لم الطريق عند المتبة فوق جسر الخردلة ؛ فاجتازت النجدة ذلك الموقع في الليل بعد مقاومة شديدة الى ان وصلوا الى القلعة فسحبوا سيوفهم وغاروا على الذين في المشايرس وصاحوا صيحة واحدة ؛ فانهزم من قدامهم الذين كانوا في المشايرس فاخذوا منهم ثلاث ييارق ، ثم نزلوا من الخندق وداروا الى جانب المرحلق وفتح لهم اهل القلعة باب السر وادخلوهم ٣٤ رجلاً لانه مسك منهم اثنان في الخردلة وقتل واحد وانهزم الباقى من الطريق . وعند الصباح نصبوا الثلاث ييارق التي اخذوها على شراريف القلعة فعد ذلك تيقظ الحافظ للقاطنين سرايا دير التمر ... »

...

اجل ، ثار ثائر الحافظ باشا بعد حصار دام ٨٤ يوماً بلا جدوى ؛ ولا سيما ان الامير يونس تمكن من الاتصال بالحامية رغم النطاق المضروب . فحمله يأسه وحلول الشتاء على فك الحصار؛ وأقر الزحف بجيوشه الى جبال الشوف . فطفت تلك الجحافل على الجبل وقد تنافم غيظها بما منيت به امام القلعة من فشل وشرعت باكتساح القرى لا تبقي فيها ولا نذر ، فتعمل النهب والذبيح والتدمير . ولقرط الترويع دعيت تلك السنة المشهومة باسم « سنة الحافظ » . وما كان من الامير يونس ازاء حرج الحالة الا ان عمد الى الملاينة . وكانت دقة السياسة بيد والدته ذات المقدرة والدهاء ، الت نسب ، وهي من آل تنوخ؛ وكانت تلقب « بالمت الكبيرة » . فسارت بالمال الى الحافظ تستعطفه ، ورضيت بان تضع نفسها رهينة لديه في الشام رغم تقدمها في السن . وذلك بانتظار تبدل الحال وعودة الامير فخر الدين من اوربا .

٤ - بعثة توسكانا

بلغت الامير اخبار ثبات القلعتين امام هجوم الحافظ وهو مقيم في توسكانا بضيافة آن «مدسيس» . فالتج التجأ صدره ، وساعده في مفاوضاته والدول الاوربية وقد ظهرت لها قوته ومناعة بلاده .

ولكن حكومة الغراندوق شاءت ان تستثبت حقيقة الحال قبل التنديد بالمخالفة فانفقت والامير على ايفاد بعثة الى لبنان غايتها الظاهرة التجارة ، والمقصود الختبيتي درس الحالة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً .

وجاءت البعثة تحت رئاسة «سانتي» ، وعُرفت باسمه ، فاجابت البلاد طولاً وعرضاً بعد جلاء الجيش عن الشوف ، وسهل لها الامير يونس مهمتها . فزارت قلعة الشقيف وهالك ما ورد في تقريرها عن هذه القلعة :

« قلعة الشقيف متصلة على جبل صخري مزملق من جميع جهاته ، الا من جهة واحدة ضيقة جداً يسهل مد العنبر منها . وهي مبنية على شكل زاوية في غاية المناعة قد حفرت لها خنادق عميقة امام المواقف السهلة المنال فيها . لها ابراج مربعة تسع خمسية جندي وفيها من المؤونة الكافية وفيها مهابيع المياه وآبار الزيت وقيل ان قسماً كبيراً من خزانة الامير مدفون فيها في بطن الارض حسب عادتهم» (١) .

٥ - تسليم القلاع ودمها

ومع اجتياح الحافظ باشا جبل الشوف والتكامل باهله لم ينس فشله امام القلعة ، فبات في تلك السنة على الضيم بعد العدة لحملة جديدة .

وفي السنة التالية ١٦١٥ اقبل من الشام ومعظم جنوده من وجاق الانتكشارية قاصداً قلعة الشقيف . ولكنه ما بلغها حتى بلغته اخبار عزله من ايالة دمشق على اثر مقتل الصدر الاعظم نصوح باشا وكان صديقاً له . فقتل راجعاً . وتولى بعده الصدر الاعظم الجديد محمد باشا المناوضة بتسليم القلعتين الشقيف وبانياس . فرضيت الخاية بالتسليم ، ابي بمولادة الدولة العثمانية . ولكن محمد باشا ، وقد جاء حلب هذه المهمة ، اشترط ان لا يبقى في القلاع الا الحرير وبعض الخدم ، مما رفضه الحامية . وازاء الرفض عمد الصدر الاعظم الى كسب بعض القواد

(١) يقال ان هناك دليلاً يمتد من القلعة في بطن الجبل حتى نهر اللطاني لاجل استقاء المياه . وقد روى في بعض اهل الجوار ان هناك بئراً يتصدون ان المرأة اذا تدلت فيها يزول عقمها .

بالوجود والرثوة . فشرع الامير يونس معن بالمكيدة ونقل قائد السكمان في الشقيف الى صيدا ، ودعا قائد بانياس الى دير القمر ، وباشر تجهيز القلعتين مجدداً بالعازق والجند .

وبينا الامور تسير على هذا المنوال فرّق قائد بانياس : المدعو حسين البازجي ، خلسة في الليل الى حلب يرافقه الامير يونس حرفوش ، الذي لم يكن يضمر الولاء لآل معن : يفاوضان الصدر الاعظم .

قال ابن خالدي :

« وقد شرطوا ان كلّ من القلعتين يهدم . فوقع هذا الكلام عند حفرة الوزير في سوق عظيم لان ما كان يصدق ان هذا الكلام يصير . ووعده الامير حرفوش بسنجقية حمص اذا تم هدم القلاع ووعده حسين البازجي بايالة صفد .

« الا انه ما طاب على خاطر الامراء المعينين يونس وعلي هدم القلاع . ولكن نفذ الامر فا بّي يمكن الدفاع لان الوقت كان غير مساعد لطمع السكمان المقيمين في القلاع ، ولان الامير علي كان يستد على رأته حسين البازجي وعلى اقواله وانعاله لان والده الامير فخر الدين كان دائماً يرضيه بذلك . وبني حسين يقول لو رأيت وجهه خلاص غير هذا لما فعلته فقلب المقدر المكتوب في الازل وهو غراب القلعتين المذكورتين . فاخرجوا جملة الخريم ولم يتركوا في القلعة احداً من حريم الامير . فهاجوا بالكل الى صيدا واخرجوا الي ما بيعت وفضلت عنهم نقلوها الى شقيف نيسا . واما حواصل الثمة بعدما راح منها للاكل وغيره في هذه المدة ثلاث سنين خمسية غرارة باعربا وجاءت من الشام للهدم جهلسون وشرعوا فيه واستمروا في القلعتين مقدار اربعين شهراً » .

واستندت الدولة العثمانية الى حسين البازجي قائد السكمان الخائن حكم صفد جزاء مكرده باسياده آل معن ، ولكن هؤلاء لم ينسوا له الاساءة ، فحمل عليه في السنة التالية الامير اعلي معن وقطع رأسه وجيء به الى مدينة صيدا عبرة لمن اعتبر .

ودارت الايام دورتها وعاد الامير فخر الدين من اوروبا الى سياسته اللبنانية غير غافل عن اعادة تحصين القلعتين . ولكنه لم يفرض امرهما الى حامية مأجورة . بل الى جنده من اللبنانيين كما ذكر ذلك « بيار لوجييده » في تقريره الذي اوردته الاب بولس قرألي في كتابه عن فخر الدين .

وطلب من غراندوق توسكانا بعثة من المهندسين لترميم قلعتي نيسا والشقيف ، اي شقيف ارزون وشقيف تيرون ، باعتماد الفن ، وسمى لتحصين مرفأ صور بعد مرفأ صيدا .

٧ - منشأ الحزبين اليزيدي والجنبلاطي

وفي صدد البحث عن قلعة الشقيف فقد ذكر الخالدي في حوادث ١٦١٤ ان الشيخ يزبك عبد العنيفة من اعيان الشوف سافر الى ايطاليا للاتصال بالامير . وكان « للأمير عليه احسان : وحكّمه بلاد صغد سنة ، وبلاد بشارة سنة : وانصفه من خصمه الشيخ جنبلاط : فوضعه في قلعة الشقيف محبوساً » .
والشيخ يزبك هذا من يكون : ومن هو الشيخ جنبلاط خصم الشيخ يزبك عبد العنيفة : بل ما هي تلك الخصومة بينها التي افقت الى حبس الشيخ جنبلاط في قلعة الشقيف ؟

اسئلة تدعو الى الظن بان الحزبين اليزيدي والجنبلاطي قاما في ذلك التاريخ : فحلا محل الحزبين القيسي واليمني ، وفخر الدين يومذاك زعيم القيسيين .

اما الشيخ جنبلاط فقد يكون من انساب علي باشا حاكم حلب وحليف فخر الدين نزل الشوف بعد تلك الجريمة . ولكن يصعب القول ان الامير امر بحبسه مع حداثة اقامته في البلاد .

وفي كل حال فان هذه العبارة في كتاب الخالدي شأنها مرموقاً في الافادة عن منشأ الحزبين اللبانيين ، وهي تفسح المجال للبحث التاريخي امام من يملكون المصادر الصادقة البيان .

